تفسير سورةُ الشعراء

من آية (141) إلى آية (159)

اللقاء الثامن

المعنى الإجمالي من آية (123) إلى آية (140):

يحكي الله تعالى جانبًا مِن قصةِ هودٍ عليه السلامُ معَ قومِه، فيقولُ: كَذَّبَتْ قبيلةُ عادٍ رُسلَ اللهِ بتكذيبِهم رَسولَهم هودًا -فتكذيبُهم له تكذيبٌ لِغيرِه- حينَ قال لهم هودٌ، وهو أخوهم في النَّسَبِ: ألَا تتَّقون اللهَ، إنِّي لكم رسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم ثوابًا ولا جزاءً؛ فما ثوابي إلَّا مِن اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

أتَبْنون بكُلِّ مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِن الأرضِ بناءً عاليًا؛ عَبَثًا وفخرًا، وتَصنَعون بناياتٍ مُحكَمةً كأنَّكم تَخلُدونَ في الدُّنيا، وإذا أخَذتُم النَّاسَ آذَيْتُموهم ظُلمًا وعُدوانًا! فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه وأطيعوني، واتَّقوا اللهَ الذي أعطاكم ما تَعلَمونَ مِن النِّعَمِ؛ أعطاكم أنعامًا وبنينَ، وبَساتينَ وعيونَ ماءٍ، إنِّي أخافُ عليكم مِن الله عذابَ يومٍ عَظيمِ الأهوالِ.

فقال له قومُه: سواءٌ عندَنا وَعْظُك لنا وعَدَمُه، فلن نؤمِنَ بك، ما هذا الذي نحن عليه إلَّا عادةُ آبائِنا الأوَّلينَ، ونحن تابِعونَ لهم، وما نحن بمعَذَّبينَ في الدُّنيا ولا في الآخرة.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى إصرارَهم على التكذيبِ، وسوءَ عاقبتِهم، فيقولُ: فكَذَّب هؤلاء المشرِكون رَسولَهم، فأهلَكْناهم أجمَعينَ. إنَّ في إهلاكِنا قَومَ هُودٍ لَعِظةً وعِبرةً، وما كان أكثَرُ قَومِ هودٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعذابِه.

«إن السعيد من اتعظ بغيره... وأما الشقي فمن اتعظ بنفسه»، العظة والاعتبار، أن نتعلم الدرس ونفهمه، حتى لا نكرر الخطأ مجددًا ونقع فيه، مع اليقين في أن كل ما يحدث إنما هو اختبار من الله عز وجل، ليميز الخبيث من الطيب، وليرفع درجات بعض ويحط دركات بعض، (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿141﴾

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) أي: كذَّبتْ قبيلةُ ثَمودَ بجَميعِ رُسُلِ اللهِ. موسوعة التفسير

الأنبياءُ إخوَةٌ لعَلَّاتٍ: دِينُهم واحِدٌ، وأمَّهاتُهم شَتَّى

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿142﴾

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) أي: حينَ قال لهم صالِحٌ -وهو أخوهم في النَّسَبِ، فهم يَعرِفون صِدقَه وأمانتَه وشَفَقتَه عليهم-: ألَا تتَّقون اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه. موسوعة التفسير

❍التقوى جماع الخير، وهي وصية الله تعالى في الأولين والآخرين بل هي خير ما يستفيده الإنسان، وعلى أساسها يتفاضل البشر.

التقوى: "أن تعمل بطاعة الله على نور من نور الله رجاء ثواب الله، والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله خوف عقاب الله".

✿أول درجات التقوى هي: فعل الواجبات، وترك المحرمات، وثانيها: التقرب بالنوافل والقربات واجتناب المكروهات، ثم ما يزال العبد يترقى في درجاتها حتى يجعل بينه وبين الحرام سترة من الحلال.

⇦وإذا سموت في درجات التقوى فإن التقوى أن تدع أشياء من الحلال مخافة أن يجرك فعلها إلى الحرام.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: "ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام".

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿143﴾

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأُبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ. موسوعة التفسير

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿144﴾

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه. موسوعة التفسير

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿145﴾

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ. موسوعة التفسير

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: ما أرجو ثوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرازِقِ، المالِكِ المدبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ خَلقِه. موسوعة التفسير

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ ﴿146﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا ثبتَتِ الأمانةُ، وانتفَى مُوجبُ الخيانةِ؛ شرَعَ يُنكِرُ عليهم أكْلَ خَيرِه، وعبادةَ غيرِه، فقال مخوِّفًا لهم مِن سَطَواتِه، ومرغِّبًا في المزيدِ مِن خَيراتِه، مُنكِرًا عليهم إخلادَهم إلى شَهوةِ البَطنِ، واستنادَهم إلى الرَّفاهيةِ، والرِّضا بالفاني

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ) أي: أتظُنُّون أنَّ اللهَ يترُكُكم تتنعَّمون في هذه الخَيراتِ آمنينَ لا تخافونَ. موسوعة التفسير

⇦قيل: تَخويفٌ لهم؛ بمعنى: أتطمعون أنْ تُقَرُّوا في النِّعَمِ على معاصيكُم؟ وقيل: أَتُتْرَكُونَ استفهامٌ في معنى التوبيخ.

قال السعدي: (أتحسبونَ أنَّكم تُتركون في هذه الخيراتِ والنِّعِمِ سُدًى، تتنعَّمون وتتمتَّعون كما تتمتَّعُ الأنعامُ، وتُتركون سدًى لا تؤمَرونَ ولا تُنهَوْن، وتَستعِينونَ بهذه النِّعِمِ على معاصي اللهِ؟!). وقيل: آَمِنِينَ: أي: مِن الموتِ والعذابِ.

قال ابن عثيمين: في هذه الآيةِ دَلالةٌ على عِظَمِ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّها تستوجِبُ الشُّكرَ العظيمَ للهِ سُبحانَه وتعالى، وأنَّه هو مُعطي الأمانِ وآخِذُه؛ لِقَولِه: آَمِنِينَ.

قال ابن عاشور: ففي تذكيرِهم بنعمةِ الله عليهم بما مكَّن لهم مِن خَيراتِ حَثٌّ على العملِ لاستبقاءِ تلك النِّعَمِ؛ بأنْ يَشكروا اللهَ عليها.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿147﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان للتَّفسيرِ بعْدَ الإجمالِ شأنٌ؛ بيَّنَ ما أجمَلَ بقولِه، مُذَكِّرًا لهم بنعمةِ اللهِ ليَشكُروها

(فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) أي: في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ. موسوعة التفسير

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ﴿148﴾

(وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ) أي: وفي زُروعٍ ونَخلٍ طلْعُها "الثمَرُ الذي تُطلِعُه" لَيِّنٌ رَطْبٌ. موسوعة التفسير

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ ﴿149﴾

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ) أي: وتَنحِتون مِنَ الجبالِ بُيوتًا لكم حاذِقِينَ بنَحتِها. موسوعة التفسير

قال ابنُ عباسٍ، وغيرُ واحدٍ: يعني: حاذقِينَ. وفي روايةٍ عنه: شَرِهينَ أَشِرينَ.

قال ابن عثيمين: فيه بيانُ قوَّةِ قومِ صالحٍ؛ إذ بَلَغوا مِن القوَّةِ أنْ كانوا يَنحِتونَ بيوتَهم في الجِبالِ، وأيُّ قوةٍ بعدُ

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ عليه السلامُ لِقَومِه: وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا [الأعراف: 74].

وقال تعالى: وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آَمِنِينَ [الحجر: 82].

وقال سبحانه: وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ [الفجر: 9].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿150﴾

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي. موسوعة التفسير

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿151﴾

(وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) أي: ولا تَنقادوا لأمرِ المسرِفين، الذين تمادَوا وتجاوَزوا الحَدَّ في الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه. موسوعة التفسير

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿152﴾

(الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) أي: الذين يُفسِدون في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي والدَّعوةِ إلى ذلك، ولا يُصلِحونَ أنفُسَهم بالعَمَلِ الصَّالحِ، ولا يأمُرونَ غيرَهم بالصَّلاحِ. موسوعة التفسير

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿153﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا دعا إلى اللهِ تعالى بما لا خلَلَ فيه، فعَلِموا أنَّهم عاجِزونَ عن الطَّعنِ في شَيءٍ منه؛ عَدَلوا إلى التَّخييلِ على عُقولِ الضُّعَفاءِ

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) أي: قال قومُ صالحٍ: إنَّما أنت مِن المسحورينَ الذين بُولِغَ في سِحرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّة، فلا عقْلَ لك، وإنَّما تَهذي بما لا معنى له. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: تَسليةٌ لكلِّ داعيةٍ إذا دعا إلى حَقٍّ، فقُوبِل بإعراضٍ ورفْضٍ لِما معه مِن الحقِّ، وأنَّ الواجبَ عليه أن يَصبِرَ، وأن يقولَ: جرَى للأنبياءِ مِثلُ هذا وأشدُّ، وهم أشرفُ عندَ اللهِ مِنِّي.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿154﴾

(مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) أي: ما أنت إلَّا آدميٌّ مِثلُنا، فكيف خَصَّكَ اللهُ بالرِّسالةِ مِن بيْنِنا حتى نتَّبِعَك. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ [القمر: 23 - 25].

(فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أي: فأْتِ بحُجَّةٍ تدُلُّ بوُضوحٍ على صحَّةِ ما تقولُ إن كنتَ مِن الصَّادقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن اللهِ إلينا حَقًّا. موسوعة التفسير

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿155﴾

(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) أي: قال صالحٌ لِقَومِه: هذه ناقةٌ جعَلَها الله لكم آيةً تدُلُّ على صِدقي، لها حَظٌّ ونَصيبٌ مِن الماءِ في يومٍ لا تُشارِكونَها فيه، ولكم حظٌّ ونَصيبٌ مِن الماء في يومٍ لا تُشارِكُكم فيه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ [الأعراف: 73].

وقال سُبحانَه: وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ [هود: 64].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿156﴾

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أي: ولا تَمَسُّوا النَّاقةَ بأيِّ أذًى كائنًا ما كان؛ فإنَّكم إن فعلتُم يُصيبُكم مِنَ اللهِ عذابُ يومٍ عظيمِ الأهوالِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى حاكيًا قولَ صالحٍ لِقَومِه: وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [الأعراف: 73].

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ﴿157﴾

(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) أي: فقتَلَ قَومُ صالحٍ النَّاقةَ، فأصبَحوا نادِمينَ على ذلك حينَ أيقَنوا بالعَذابِ.

موسوعة التفسير

⇦قولُه: فَعَقَرُوهَا أُسنِدَ العَقْرُ إلى كُلِّهم؛ لأنَّ عاقِرَها إنَّما عقَرَها بِرِضاهُم ورأيِهم؛ ولذلك عمَّهُمُ العذابُ.

موسوعة التفسير

سؤالٌ: لِمَ أخَذَهم العذابُ وقد نَدِموا؟

جوابُه مِن وجهَينِ:

الأولُ: أنَّه لم يكن نَدَمُهم نَدَمَ التائبينَ، لكنْ نَدَمُ الخائفينَ مِن العذابِ العاجِلِ.

الثاني: أنَّ الندمَ، وإنْ كان نَدَمَ التَّائبينَ، ولكنْ كان ذلك في غيرِ وقتِ التوبةِ، بل عندَ معاينةِ العذابِ؛ قال تعالى: وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ... الآية [النساء: 18].

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿158﴾

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) أي: فأهلَكَهم اللهُ بالعذابِ الذي توعَّدَهم به نبيُّهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [الأعراف: 77، 78].

وقال تعالى: وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [هود: 67].

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ صالحٍ لَعِظةً، وعِبرةً، ودَلالةً على صِدقِ رَسولِه. موسوعة التفسير

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قومِ صالحٍ مُؤمِنينَ. موسوعة التفسير

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿159﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان رُبَّما تُوُهِّمَ أنَّه سُبحانَه غيرُ متَّصِفٍ بالعِزَّةِ؛ لعدَمِ قَسْرِهم على الإيمانِ، أو بالرَّحمةِ؛ لإهلاكِهم- قال

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه. موسوعة التفسير

قوم صالح -ثمود-، هؤلاء الذين فجروا العيون وغرسوا الحدائق والبساتين، ونحتوا من الجبال بيوتًا، وأمِنوا غوائل الدهر، وكانوا في سعة من العيش ورغد ونعمة وترف، ولكنهم لم يشكروا الله، ولم يحمدوا له فضله، بل زادوا عتوًّا في الأرض وفسادًا، وبُعدًا عن الحق واستكبارًا، وعبدوا الأوثان من دون الله، وأشركوا به، وأعرضوا عن آياته، وظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السّعَة متروكون.

بعث الله -عز وجل- إليهم صالحًا عليه السلام، وكان من أشرفهم نسبًا، وأوسعهم حلمًا، وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضّهم على توحيده، فهو الذي خلقهم من تراب، وعمر بهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام من دونه، فهي لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا تُغني عنهم من الله شيئًا.

ذكّرهم بأواصر القُربى التي تربطه بهم، ووشائج النسب التي تصل بينه وبينهم، فهم قومه وأبناء عشيرته، وهو يحب نفعهم، ويسعى في خيرهم، لا يضمر لهم سوءًا، ولا يريد بهم شرًّا، وأمرَهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب، واجترحوا من إثم، فالله -عز وجل- لمن دعاه قريب، ولمن سأله مجيب، ولمن أناب إليه سميع.

فما كان منهم إلا أن صمَّت منهم الآذان، وغُلّفت القلوب، وعمِيت الأبصار، فأنكروا عليه نبوَّته، وهزئوا بدعوته، وأنها بعيدة عن الحق الصدق، ثم لاموه فيها، أنّبوه على صدورها منه، وهو الراجح عقلاً، الصائب رأيًا، وقالوا له: يا صالح: عهدناك ثاقب الفكر، مصيب الرأي، وقد كانت تلوح عليك ملامح الخير وأمارات الرشد، وكنا ندّخرك لملمّات الدهر، تضيءُ ظلماتها بنور عقلك، وتحُل معضلاتها بصائب رأيك، وكنا نرجو أن تكون عُدتنا حين يحزب الأمر ويشتد الخطب، فنطقت هُجرًا، وأتيت نُكرًا. ما هذا الذي تدعونا إليه؟! أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا، وقد درجنا عليه، ونشأنا مُستمسكين به! إننا لفي شك مما تدعونا إليه مُريب، لا نطمئنّ إلى قولك، ولا نثق بصدق دعوتك، ولن نترُك ما وجدنا عليه آباءنا ونميل مع هواك وزيْغِك.

فحذرهم صالح عليه السلام من مخالفته، وأعلن فيهم رسالته، وذكّرهم بما أسبغ الله -عز وجل- عليهم من نِعمه، وخوّفهم بأسه وبطشه، وأبان لهم أنه لا يقصد من وراء دعوته إلى نفع، ولا يطمع في مغنم، ولا يتطلع إلى رياسة، وهو لم يسألهم أجرًا على الهداية، ولا يطلب جزاءً على النصيحة، وإنما أجره على الله رب العالمين، درءًا لكل شبهة قد تساور نفوسهم، ودفعًا لكل شك قد يجول في خواطرهم.

فآمن به بعض المستضعفين من قومه، أما الملأ الذين استكبروا فأصرُّوا على عنادهم، وتمادوا في طغيانهم، واستمسكوا بعبادة أوثانهم، وقالوا له: إنك قد خُولطت في عقلك، وضاع صوابك، وما نظنّ إلا أن أحدًا سلّط عليك شيطانه، أو أعمل فيك سحره، فأصبحت تهرف بما لا تعرف، وتنطق بما لا تفقه: فلست إلا بشرًا مثلنا، وما أنت بأشرفنا نسبًا، أو أفضلنا حسبًا، أو أوسعنا غنى وجاهًا، وفينا من هو أحق منك بالنبوّة، وأجدر بالرسالة، فما حملك على انتهاج هذه الطريق، وسلوك تلك السبيل، إلا رغبتك في تعظيم نفسك، وتطلُّعك إلى الرياسة على قومك.

حاولوا صده عن دينه، وصرفه عن دعوته، وزعموا أنهم إن اتبعوه حادوا عن الصراط المستقيم، وخالفوا الطريق القويم، فأعرض عن بهتانهم، ولم يستمع إلى غوايتهم، وقال: يا قوم: إن كنت على بيّنة من ربي،

وآتاني منه رحمة، ثم اتبعت طريقكم، وسرت في سبيلكم وعصيت ربي، فمن يمنعني من عذابه، أو يعصمني من عقابه؟! إن أنتم إلا مفترون.

فلما وجدوا منه استمساكًا برأيه، واعتصامًا بحقه، خاف المستكبرون من قومه أن يكثر تابعوه، ويعظم ناصروه، وعزّ عليهم أن يكون المرشد للقوم، والملجأ عند الشدائد، والكوكب المنير إذا ادلهم الأمر، فينصرف الناس عنهم، ويفزعون إليه في كل شأن، ويطرقون بابه كلما حزبهم أمر وأهمهم، ولا شك أنه سيهديهم إلى ما يقرّبهم إلى الله، ويصدّهم عما يُنئيهم عنه، فخافوا زوال دولتهم، وذهاب سلطانهم، وأرادوا أن يظهروا للناس عجزه، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية يتبيّنون بها صدق دعوته، ومعجزة ظاهرة تصدّق رسالته. فقال لهم: هذه ناقة لها شِرْبٌ ولكم شِربُ يوم معلوم، فذَرُوها تأكل في أرض الله.

لم ير الناس قبلاً ناقة تستأثر يومًا بمائهم، ولم يعهدوا غيرها يَكُفُّ يومًا عن شربهم، ولا شك أن صالحًا عليه السلام قد عهد فيهم إصرارًا على الكفر، واستمساكًا بالباطل، وعلم أن المنكر يُفزعه ظهور حجّة خصمه، ويخيفه وضوح برهانه، بل يحرك كامن غيظه ومستور حقده قيام شاهده، وقوة آيته، لذلك خاف إقدامهم على قتل الناقة، وحذّرهم من الفتك بها، فقال لهم: (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) [هود:117].

مكثت الناقة بينهم زمنًا تأكل في أرض الله، ترِد الماء يومًا، وتصدر عنه يومًا، ولا شك أن قيامها قد استمال إليه كثيرًا من قومه، إذ استبانوا بها صِدْقَ رسالته، وأيقنوا بصحة نبوّته. فأفزع ذلك المستكبرين من قومه، وخافوا على دولتهم أن تبيد، وعلى سلطانهم أن يزول، فقالوا للمستضعفين من قومه وهم الذين أشرق نور الإيمان في قلوبهم، وعمرت به صدورهم، واستضاءت إليه أفئدتهم: (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) [الأعراف:75]. فلم تلن قلوبهم، وأعلنوا كفرهم، وصارحوهم بتكذيبهم وقالوا لهم: (إِنَّا بِالَّذِى ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ) [الأعراف:76].

كل ذلك وغيره حملهم على الإقدام على عقر الناقة، ودفعهم إلى قتلها، رغمًا من تحذيرهم بالعذاب وتوعُّدهم بالهلاك إن مسُّوها بسوء من نبي الله صالح عليه السلام.

ومع ذلك بقوا زمنًا لم يجرؤا على إيذائها، ولم يتقدم أحد إلى مسها بسوء، ثم عزموا على قتل الناقة، آية صالح البينة، وحجته البالغة، فانطلقوا إلى الناقة يرصدونها، وخرجوا يرقبونها، فلما صدرت من وردها، ورجعت عن مائها، رماها أحدهم بسهم انتظم عظم ساقها، وابتدرها قدار بن سالف –عاقر الناقة– بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت على الأرض، ثم طعنها في لبتها فنحرها: (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) [الأعراف:77]، ورجعوا يزفون البشرى إلى أعوانهم، واستخفوا بوعيد الله، وقالوا: يا صالح: ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، قالوا ذلك تحديًا.

إن صالحًا عليه السلام قال لقومه بعد أن عقروا الناقة وقتلوها: قد حذرتكم إن أصبتموها بأذى، ولكنكم قد اجترحتم الذنب، تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يأتيكم بعدها العذاب، ويحل عليكم في نهايتها العقاب، ذلك وعد غير مكذوب.

مع ذلك كذبوا وعادوا في الضلال واستعجلوا العذاب تحديًا، ثم قالوا لصالح: (اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ) [النمل:47]، أي تشاءمنا بك وبمن معك، واجتمع نفر من قومه وتقاسموا على أن يتسللوا إليه في جُنْح الظلام، ويباغتوه وأهله والناس نيام، فيوقعوا به دون أن يراهم أحد، وجعلوا ذلك سرًّا بينهم، فبيّتوا له الشر، وأضمروا له ولأهله القتل، ظنًّا منهم أن ذلك يعصمهم من العذاب، ولكن الله -عز وجل- لم يُمهلهم، بل أحبط مكرهم، وردّ إليهم كيدهم، ونجّاه مما أرادوا به، وأنقذه الله والذين آمنوا معه من العذاب، وأنزل بالكافرين عقابه تصديقًا لوعده: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) [هود:67] .

ولم يمنعهم ما شادوا من قصور شامخة، وما جمعوا من أموال وافرة، وغرسوا من جنات واسعة، ونحتوا من بيوت آمنة.

ورأى صالح عليه السلام ما حلّ بهم؛ إذ أصبحت جثثهم هامدة، وديارهم خاوية، فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه، والحسرة تقطع نياط قلبه: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) [الأعراف:79].

لقد أخذتهم الصيحة التي تحصل منها الزلزلة الشديدة، فأصبحوا ساقطين على وجوههم ميتين هامدين لا يتحركون، وقد روى أحمد والإمام البخاري والإمام مسلم عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: لما مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالحجر -أي في غزوة تبوك-، وهي مدائن صالح حاليًا قرب تبوك، قال لأصحابه: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم"، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي.